٢ — من ذكرياتي في بلاد النوبة :

في الباخرة !!

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وتحدث بعض الناس عن عنيبة مادحاً ، فهذا تاجر — أخنى عليه الدهر ، فاضطر ليعمل ساعياً في بعض مصالح الحكومة — يحدثنا فوق ظهر الباخرة حديث الخبير العليم ، عن أحوال عنيبة وظروفها ، وما ينعم به موظف الحكومة ، والمدرس خاصة ، بشتى ضروب النعم ، ومختلف لذاذات الحياة . وأن عنيبة باريس بلاد النوبة عامة ! وأنها جنة الصعيد على الإطلاق ، جواً ، ومنظراً وبعداً عن الحشرات والأمراض . ! !

ووقع هذا القول من نفوسنا موقعاً جميلا ، فماذا يبغي الإنسان من دهره غير حياة هادئة وادعة ، يجد فيها لذاذة العيش ، وراحة البال ؟ !

وهذا رجل آخر يذكر لنا وفرة الطيور ، وكثرة اللحوم ، ورخص الخضر ، وبعض أنواع الفاكهة ، وأنه على استعداد ليوفر لنا كل ما نحتاج إليه ، ويورد لنا كل ما نريد ، دون أن نحرك ساكناً ، أو ننقل قدماً ، وأن الدجاجة الكبيرة التي تساوي في القاهرة ثلاثين قرشاً ، بثمانية قروش ، والزوج من الحمام بسبعة قروش ، والرطل من اللحم الضأن بسبعة قروش أيضاً ، وثمن أربع بيضات قرش واحد ! !

وكانت هذه الأثمان تسترعي انتباهنا ، وتستوجب دهشتنا ، وكان معنا في الباخرة مهندس ميكانيكي ، وقاض شرعي منقول هو الآخر إلى عنيبة ، فأخذ كل منا يعلق على هذا الكلام القريب من كل نفس في هذه الأوقات ، وفي عينه فرحة ، وفي وجهه دلائل الدهش والاستغراب ! فكلنا ذاق مرارة الجشع . وقسوة الطمع ، وارتفاع الأثمان إلى أضعاف ما يجب أن تكون عليه ، ولا يزال علمنا بأثمان الحاجيات ، ليس ما تسمره الحكومة وتفرضه ، وإنما ما نشتري به بالفعل ، من أيدي التجار . الذين لا يخافون الله ، ولا يخشون عين الحكومة ، ولا سطوة القانون . !

مكثنا نضرب مع أولئك الذين يدعون أنهم على علم ببواطن الأمور في عنيبة ، وكأنما فهموا منا هذا الإحساس ، فسمعنا ما جعل الشك يدب إلى نفوسنا في هذه الأحاديث ، وأن ما يقال ليس هو الحقيقة والواقع ، وإنما أراد هؤلاء الانتفاع منا فأعرضنا عنهم ، وبخاصة وأن واحداً من الزملاء كان ناقماً أشد النقمة على هذه الرحلة ، ويرى فيها شؤماً أي شؤم ، وعذاباً أليماً ، وانتقاماً ليس بعده انتقام ، وتوهيناً للقوة ، وتشتيتاً للشمل الجميع ... !

ولهذا كان يناهض كل مادح لعنيبة مناهضة قوية ، ويعارضه في شدة وقسوة ، فهو يريد أن يعيش في القاهرة بنصف مرتبه ! ولا يحب أن يأكل زوجاً من الحمام في عنيبة ، ويأكل في القاهرة أو في بلدته نصف حمامة فقط ! ولا يحب أن يأكل في عنيبة رطلا من اللحم ويأكل في القاهرة أو في أي بلدة أخرى ربع رطل فحسب ! ولا يريد أن يدخر في عنيبة ثلاثة أرباع راتبه الشهري ، ويحب أن ينفق كل مليم من دخله في القاهرة أو أي بلدة أخرى ! !

وهكذا مضى يناقش ويناضل في قوة كل من يثني على هذه البلاد بقليل أو كثير ، وكأنما كل مادح في عنيبة هو الذي قضى عليه أن ينقل إليها ، ليلقى فيها عناء الوحدة القاتل ، ومرارة التعذيب الأليم ... ! !

ولهذا فإن هذا الزميل ، كان يأنس بفريق آخر من الناس ، زمّ شفتيه عند ما علم أننا ذاهبون إلى عنيبة ، ونظر إلينا نظرة رثاء وإشفاق ، ورأى أننا مشردون منفيون لا محالة ، ولا بد أننا قمنا بحركة سياسية لم ترض القائمين بالأمر ، فحكموا علينا بذلك الحكم القاسي ، الذي لا مرد له ، وأننا سنلقى هناك صحراء جرداء ولن ننعم فيها بشيء ، لأنه ليس فيها شيء ينعم به إنسان . سوى الجبال والرمال ، والعقارب ، و (الطريشة) وهي نوع من الثعابين يتحوّى عند ما يشعر بإنسان قادم نحوه ، ثم يقفز إليه ، فإذا عضه ، فلا علاج أبداً غير قطع هذا الجزء الملدوغ في الجسم ، وصب زيت مغلي على موضع الجزء المقطوع ؟ ! ! .

استمعنا إلى هذا ، فأدركتنا الرهبة ، وملأنا الخوف ، واقشعرت منا الأبدان ، واصطكت الأسنان ، وجحظت العيون ، ونظر بعضنا إلى بعض نظرات تنم عن الجزع والهلع ، واللوعة والاضطراب . وكدنا جميعاً نوافق الزميل الناقم ، وخيل إلينا أن خير طريق نفعله ، وأفضل حل نرتضيه لهذا المأزق الذي نحن

، ، هو القناعة بوظيفتنا فى القاهرة ، ومركزنا الذى ارتضيناه لأنفسنا ، وألفنا كل ما يحيط به من بيئة وأساتذة وتلاميذ ، وأنه لا داعى لهذه الترقية التى ستلقى بنا فى أحضان العقارب الشائلة ، والثعابين الرقط ، وسط تلك الصحراء الجرداء ... علينا إذن أن نلوى وجوهنا ثانية نحو القاهرة ، ولتأخذ وزارة المعارف معنا ما شاءت من الإجراءات ، وليفعل الله بعد ذلك ما يريد ... !!

ولكن صوت الواجب هز المشاعر ، ودوى فى الآذان ... الواجب الإنسانى ، وواجبنا كوطنيين مثقفين ، نعمل على رفعة الوطن ، عن طريق تنوير الأذهان ، وتثقيف العقول ، وغرس الفضائل ، ونشر المعارف بين مختلف الطبقات ، وليس بين الطلبة والتلاميذ فحسب ... هذا الواجب الذى أشربته قلوبنا ، وجرى فى أبداننا مجرى الدم فى العروق ... نحيا به ، ونعمل له جادين غير هازلين ، راضين غير كارهين ، مخلصين غير متوانين ولا متكاسلين ... هذا الواجب ارتفع صوته قوياً ، فبدد هذه الأوهام ، وجعل منا قوة دافعة ، وعزيمة وثابة ، فانصرفنا عن هذا الفريق الشبط للهمم ... حتى ذلك الزميل الثائر أفاق إلى نفسه واعتقد أن فى الأمر مغالاة ... !

يا لله ! كيف تضاربت أقوال الناس إلى هذا الحد عن بلاد يدعى كل منهم أنه رآها وخبر أحوالها ، وعاش فيها حقبة من الزمان ؟ ! فمتى نرى بأعيننا خير ما سمعنا لنحكم لها أو عليها ، فأنا بطبيعتى لا أثق كثيراً بما أسمع ، وخاصة وقد لدغت بضع مرات من هذا السبيل ، على أننى بحمد الله مؤمن كل الإيمان ، فأرجو ألا يتحقق فى قول الرسول الكريم : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ...

وخيل إلى أن الأمر كما يقول أخى جمال ؛ حينما علم بنقلى إلى عنيبة .

— إن كل ما تسمع من مدح وافر ، وثناء مستطاب ، على جميع بلاد الوجه القبلى ومديرية أسوان خاصة ، فهو من قبيل التعزية والتسلية . وتخفيف الألم ، والبلاء . كما يقول الناس للرجل المرزأ ، ما فى رزئه من فضل وخير ، وثواب وأجر ، لأنه لا يرى فى رزئه غير وجهه المظلم ... وهذا كله لن يغير من أثر الرزء شيئاً ، ما لم يكن هناك الاستعداد الكافى لتقبله والرضاء به ..!!

ودخلت إلى مقصورتى ، متزايل الأعضاء ، وقلت فى نفسى :

— صبراً يارب ، ففى سبيلك لا فى سبيل المال فحسب ، خرجنا إلى هذه البلاد النائية ، حقاً إننا خرجنا للمنصب والجاه ، والمال والثراء ، ولكن هذا كله سعى وراء الرزق والقوت يا مولاى ، وأنت سبحانك أدرى بخفايا النفوس ، ومكنونات الأفئدة ؛ وبواطن الأمور ، ولقد اقتضت إرادتك تفضلا منك ، أن تجزل الثواب والأجر لمن جاهد فى سبيل العيش والرزق والقوت ، فأجزل لنا من لدنك العطاء . إنك على كل شىء قدير .

ووقعت من نفسى هذه العبارات موقعاً جميلا ، فأحسست ببرد الراحة ، ولذة النعيم ، ومتعة الهدوء ، كأنما أزلت بهذا مابينى وبين الله من جفاء ، سببه الاعتراض على مجارى القضاء ، وتصاريف الأقدار !!

ها هى ذى الساعة تملن العاشرة مساء ، ولما تصل الباخرة إلى عنيبة .. إنها الآن فى طريقها إلى (إدرىم) ، وربما تصل عنيبة فى منتصف الليل ، أو بعد ذلك بقليل ، فاللهم اكتب لنا السلامة والعافية ، والنجاة من هذه الأخطار ...

النيل جميل ، قد انبسطت صفحته فى رحابة رائعة ، ولقد يتسع أحياناً حتى لا تكاد ترى له شاطئاً ... وقد أخذت أنوار الباخرة تنشر على صفحته الرجراجة ثوباً من النور يأخذ بمجامع القلوب ... والهواء عليل ، ينعش الأفئدة ، ويشرح الصدور ، على الرغم من أننا كنا فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٦ ، وقد تركنا القاهرة خلفنا يفتك بردها بالأبدان والجسوم ... والجبال مطبقة علينا أحياناً من الجانبين ، وفى أحضانها نخيل يغمره الماء إلى منتصفه أو يزيد ... ذلك النخيل الذى كان فى يوم من الأيام عماد ثروة طائلة ، وغنى لهذه الربوع والنجوع ولكن مياه الفيضان أضرت به ، فذوى منه الكثير ، وجف الكثير ، ولم يبق منه إلا القليل ، طغت عليه المياه ، فحرمته متعة الحياة !!

لا يزال ضجيج الباخرة ، وخرير المياه المنسابة من بين أجزائها الثلاثة ، يدفع عن عينى لذيذ النوم .

وأخيراً ها هى ذى عنيبة بمبانيها الفاخرة ... مبانيها الحكومية التى تضم عشرات الموظفين ، وها هى ذى الباخرة تقف فى المرفأ بعد الواحدة والنصف بقليل . أى بعد ست وثلاثين ساعة من حين قيامها من الشلال ...

عبد الحفيظ أبو السعود